يقول الله عز وجل: ((**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)) ((**لَـمْ يَكُـنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَبِ**)). والكلام علـى البسـملة قـد تقـدم كثيراً لنا في هذا المجلس وغيره، وبينا أن البسملة آية مـن كتـاب اللـه تكلم الله بها كما تكلم بالقرآن جل وعلا، ولكنها آية مستقلة لا تعد مـن آيات السـورة الـتي بعـدها ولا مـن آيـات السـورة الـتي قبلهـا بـل هـي مستقلة تبدأ بها السور، من الفاتحة إلى ((**قل أعوذ برب الناس**)) ما عدا سورة براءة، لأنها لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنـه افتتح سورة براءة بالبسملة، ولهذا أغفلها الصحابة رضي الله عنهم من أجل السياق وخوفـاً مـن أن تكـون سـورة مسـتقلة جعلـوا بينهـا وبيـن سورة الأنفال فاصلاً . يقول الله عز وجل: ((**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تـأتيهم البينـة**)): يعنـي مـا كـان الكفـار مـن : ((**أهـل الكتـاب**)) و((**المشـركين منفكين**)) أي تاركين لما هم عليه من الكفر ((**حتى تأتيهم البينة**)). وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، سموا بـذلك لأن صـحفهم بقيـت إلى أن بعث النبي صلى الله عليه وعلـى آلـه وسـلّم مـع مـا فيهـا مـن التبديل والتحريـف والتغييـر، ولكـن هـم أهـل الكتـاب، إذا سـمعتم فـي القرآن أهل كتاب فـالمراد بهـم مـن؟ اليهـود والنصـارى، فـاليهود لهـم التوراة، والنصارى لهم الإنجيل، أما المشركون فهم عبـدة الأوثـان مـن كـل جنـس مـن بنـي إسـرائيل ومـن غيرهـم، يقـول لـم يكـن هـؤلاء ((**منفكين**)) أي تاركين لما هم عليه مـن الشـرك والكفـر ومنفكيـن عنه ((**حتى تأتيهم البينة**)) وما هي البينة؟ البينة ما يبين بـه الحـق في كل شيء، فكل شيء يبين به الحق فإنه يسـمى بينـة، ولهـذا قـال النبي عليه الصلاة والسلام: (**البينة على المدعي واليميـن علـى من أنكر**)، فكل ما بان بـه الحـق فهـو بينـة، ويكـون فـي كـل شـيء بحسبه، فما هي البينة التي ذكرهـا اللـه هنـا؟ البينـة قـال: ((**رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة**)) وهذا الرسـول هو النبي صلى الله عليه وسلّم محمد رسول الله، محمـد ابـن عبـدالله الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه عليـه، وجـاء بصـيغة النكـرة ((**رسول**)) تعظيمـاً لـه؛ لأنـه عليـه الصـلاة والسـلام جـدير بـأن يعظـم التعظيم اللائق به من غير نقص ولا غلو ((**رسول من اللـه**)) يعنـي أن الله أرسله إلى العالمين بشيراً ونذيراً، قال اللـه تبـارك وتعـالى: ((**وأرسـلناك للنـاس رسـولاً**)). وقـال: ((**تبـارك الـذي نـزل**

الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)). فهـو محمـد عليـه الصلاة والسـلام مرسـل مـن عنـد اللـه بواسـطة جبريـل عليـه الصـلاة والسلام؛ لأن جبريل هو رسول رب العالمين إلى رسله موكـل بـالوحي ينزل به على من شاء الله مـن عبـاده. إذاً مـن المـراد بالرسـول الأخ؟ من المراد به؟ محمد، طيب من الذي أرسله؟ الله، لقــوله: ((**رسول من الله يتلـوا صـحفاً مطهـرة**))، طيـب مـن هـو الواسـطة بيـن الرسول وبين الله؟ جبريل، لأن جبريل موكل بالوحي ينزل به على من يشاء مـن عبـاد اللـه. قـوله ((**يتلو صحفاً مطهـرة**)) يعنـي يقـرأ لنفسه وللناس، ((**صحفاً**)) جمع صحيفة وهي الورقة أو اللـوح أو مـا أشبه ذلك مما يكتب بـه ((**مطهرة**)) أي منقـاة مـن الشـرك، ومـن رذائل الأخلاق، ومن كل ما يسوء، لأنها نزيهـة مقدسـة ((**فيها**)) أي في هذه الصحف ((**كتب قيمة**)) كتـب: أي مكتوبـات قيمـة، فكتـب جمع كتاب، بمعنى مكتـوب، والمعنـى أن فـي هـذه الصـحف مكتوبـات قيمة كتبها الله عز وجل، ومن المعلـوم أن الإنسـان إذا تصـفح القـرآن وجده كذلك، إذ وجد أنه يتضمن كتباً أي مكتوبات قيمـة، انظـر إلـى مـا جاء به القرآن من توحيد الله عز وجل، والثناء عليه، وحمـده وتسـبيحه تجده مملوءاً بذلك، انظر إلى ما في القرآن من وصف النبي صلى الله عليه وعلى آلـه وسـلّم ووصـف أصـحابه المهـاجرين والأنصـار ووصـف التابعين لهم بإحسان، انظر إلى ما جاء به القـرآن مـن الأمـر بالصـلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من الأخلاق الفاضلة تجد أن كل ما جاء به القرآن فهو قيم بنفسه، وكذلك هو مقيم لغيــره ((**فيها كتــب قيمة**))، إذاً أخبر الله في هذه الآية أنه لا يمكن أن ينفك هؤلاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين حتى يأتيهم البينة، فلما جاءتهم البينـة هـل انفكوا عن دينهم؟ عن كفرهم وشركهم؟ نستمع إلـى الجـواب قـال: ((**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة**)) يعني لما جاءتهم البينة هل آمنوا؟ لا، ولكنهم اختلفوا، فمنهم مـن آمـن، ومنهم من كفر، فمن النصارى من آمن مثـل النجاشـي ملـك الحبشـة، ومن اليهود من آمن أيضاً مثل عبد الله بن سـلام ــ رضـي اللـه عنـه ــ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فمن علم اللـه منـه أنـه يريـد الخيـر، ويريد الدين لله آمن ووفق للإيمان، ومن لم يكـن كـذلك وفـق للكفـر، كذلك أيضاً من المشركين من آمن، ومـا أكـثر المشـركين مـن قريـش الذين آمنوا، فصار الناس قبل بعثة الرسول عليـه الصـلاة والسـلام لـم

يزالوا على ما هم عليه من الكفر حتى جاءتهم البينة، ثم لما جاءتهم البينة ماذا حصل؟ تفرقوا واختلفوا كما قال تعالى: ((**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**)). وصلنا إلى قول الله تبارك وتعالى: ((**إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية**)): بيّن الله تعالى في هذه الآية بياناً مؤكداً بـ((**إن**)) أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ((**في نار جهنم**)) أي في النار التي تسمى جهنم، وسميت جهنم، لبعد قعرها وسوادها، فهو مأخوذ من الجُهمة، وقيل: إنه اسم أعجمي عربته العرب، وأيًّا كان فإنه أعني لفظ ((جهنم)) اسم من أسماء النار - أعاذنا الله وإياكم منها -. وقوله: ((**إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**)): ((**من**)) هنا بيان للإبهام، أعني إبهام الاسم الموصول في قوله: **((إن الذين كفروا**)) وعلى هذا فيقتضي أن أهل الكتاب كفار وهم ((**اليهود والنصارى**))، و كذلك الأمر، فإن اليهود والنصارى كفار حين لم يؤمنوا برسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإن قالوا: إنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدعون لموتاهم بالرحمة وما أشبه ذلك من العبارات التي يتزلفون بها فإنهم كاذبون، إذ لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، بل لآمنوا برسلهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلّم قد وجد وصفه في التوراة والإنجيل كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الأعراف ((**الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث**)). بل إن عيسى صلى الله عليه وسلّم قال لبني إسرائيل ((**يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**)). فلما جاء هذا الرسول الذي بشر به عيسى بالبينات، قالوا: هذا سحر مبين، وكذبوه ولم يتبعوه إلا نفراً قليلاً من اليهود والنصارى، فقد آمنوا بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم واتبعوه. ((أولئك هم شر البرية)) شر البرية: أي شر الخليقة؛ فإن البرية هي الخليقة، وعلى هذا فيكون الكفار من بني آدم من اليهود والنصارى والمشركين شر البرية شر

الخلائق، وقد بين الله ذلك تماماً في قـوله: ((**إن شر الـدواب عنـد الله الذين كفروا فهـم لا يؤمنـون**)). وقـال تعـالى: ((**إن شـر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم اللـه فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضـون**)).
فهؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشركين هم شر البرية عند اللـه عز وجل، وإذا كانوا هم شر البريـة فلـن نتوقـع منهـم إلا كـل شـر، لأن الشرير ينبثق منه الشر، ولا يمكن أبداً أن نحسن الظـن بهـم، قـد نثـق بالصادقين منهم كما وثق النبي صلى الله عليه وسـلّم بالمشـرك، عبـد الله بن أريقط، حين استأجره ليدله على طريق الهجـرة، لكـن غـالبهم وجمهورهم لا يوثق منهم، لأنهم شر. ولما ذكر الله حكـم هـؤلاء الكفـار من اليهود والنصـارى والمشـركين ذكـر حكـم المـؤمنين فقـال: ((**إن الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات أولئـك هـم خيـر البريـة**))، والقرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعـاني، فيـؤتى بـالمعنى ومـا يقـابله، ويؤتى بأصـحاب النـار وأصـحاب الجنـة، ويـؤتى بآيـات الـترهيب وآيـات الترغيب، وهلم جرا، لأجل أن يكون الإنسان سائراً إلى اللـه عـز وجـل بين الخوف والرجاء، ولئلا يمل، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضـيع لا شك أنه يعطي النفس قـوة وانـدفاعاً، بخلاف مـا لـو كـان الكلام علـى وتيرة واحدة، فـإن الإنسـان قـد يمـل ولا تتحـرك نفسـه ((**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هـم خيـر البريـة**)) فخيـر خلـق الله عز وجل هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم على طبقات أربع بينها الله فـي قـوله: ((**ومن يطـع اللـه والرسـول فأولئـك مـع الذين أنعم الله عليهـم مـن النـبيين والصـديقين والشـهداء والصالحين**)). هذه الطبقـات الأربـع هـي طبقـات المـؤمنين أعلاهـا: طبقة النبوة، وأعلى طبقات النبوة طبقة الرسـالة، ثـم بعـد ذلـك، بعـد النبـوة الصـديقية، وعلـى رأس الصـديقين أبـو بكـر رضـي اللـه عنـه، والشهداء، قيل: إنهم أُولوا العلم. وقيل: إنهـم الـذين قتلـوا فـي سـبيل الله، والآية تحتمل المعنيين جميعاً بدون مناقضة، والذي ينبغي لمفسـر القرآن أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين بدون مناقضة أن يحملهـا علـى المعنيين جميعاً، فالشهداء هم أولوا العلم، وهم الذين قتلوا فـي سـبيل الله، وكلهم مرتبتهم عالية فوق سـائر المتبعيـن للرسـل إلا الصـديقين؛ قـال تعـالى: ((**والصـالحين**)) وهـم أدنـى الطبقـات، فالـذين آمنـوا وعملوا الصالحات على اختلاف طبقـاتهم هـم خيـر البريـة، أي خيـر مـا

خلق الله عز وجل من البرايـا، ثـم بيـن جزاءهـم فقـال: ((**جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار**)) وهنا قدم اللـه الثنـاء على المؤمنين الذين عملوا الصالحات على ذكر جزائهم، لأن ثنـاء اللـه عليهم أعظم مرتبة وأعلى منقبة، فلذلك قدمه علـى الجـزاء الـذي هـو جزاؤهم في يوم القيامة ((**جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجـري من تحتها الأنهار**)) ((**جنات**)) جمعها لاختلاف أنواعهـا، لأن النـبي صلى الله عليه وسلّم قال: إن الجنات (**جنتان مـن ذهـب آنيتهمـا وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهمـا**)، وإلـى هـذا يشير قول الله تعالى: ((**ولمن خاف مقام ربه جنتان**)). ثـم ذكـر أوصاف هاتين الجنتين، ثـم قـال: ((**ومن دونهمـا جنتـان**)). فلهـم جنـات والجنـات الـتي ذكرهـا اللـه تعـالى جـزاء للمـؤمنين العـاملين الصالحات هي عبارة عن منازل عظيمة أعدها الله عز وجـل للمـؤمنين المتقين، فيهـا مـا لا عيـن رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطـر علـى قلـب بشر، ولا يمكن لإنسان في هذه الدنيا أن يتصور كيف نعيم الآخرة أبداً، لأنه أعلى وأجل مما نتصور، قال ابن عباس رضي اللـه عنهمـا " **ليس في الجنة مما في الـدنيا إلا الأسـماء** "، لكنهـا الحقـائق تختلـف اختلافاً عظيماً، قال عز وجل: ((**جنات عدن**)) العدن بمعنـى الإقامـة في المكان وعدم النزوح عنه، ومن تمام نعيم أهل الجنة أن كـل واحـد منهم لا يطلب تحولاً عما هو عليه من النعيم، لأنه لا يرى أن أحداً أكمل منه، ولا يحس في قلبه أنه في غضاضـة بالنسـبة لمـن هـو أرقـى منـه وأكمل، قال اللـه تبـارك وتعـالى: ((**لا يبغون عنهـا حـولاً**)). أي لا يبغون تحولاً عما هم عليه لأن الله تعـالى قـد أقنعهـم بمـا أعطـاهم فلا يجدون أحداً أكمل نعيماً منهم، ولهـذا سـمى اللـه تعـالى هـذه الجنـات جنات عدن - أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلهـا - .((**تجري مـن تحتها الأنهار**)) ((**من تحتها**)) قـال العلمـاء: مـن تحـت قصـورها وأشجارها وإلا فهو على سطحها وليس أسفل، إنما هو مـن تحـت هـذه القصور والأشجار، والأنهار التي ذكرها الله عز وجل هنا مجملـة فصـلها في سورة محمد فقال: ((**مثل الجنة التي وعـد المتقـون فيهـا أنهار من ماء غيـر آسـن وأنهـار مـن لبـن لـم يتغيـر طعمـه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار مـن عسـل مصـفى**)).

هذه الأنهار وقد جاء في الآثار من وصف هـذه الأنهـار أنهـا تجـري بغيـر أخدود وبغير خنادق بمعنى أن النهـر يجـري علـى سـطح الأرض يتـوجه

حيث وجهه الإنسان، ولا يحتاج إلى شق خنادق، ولا إلى بناء أخدود تمنع سيلان الماء يميناً وشمالاً، وفي هذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ــ في كتابه النونية: أنهارها من غير أخدود جرت *** سبحان ممسكها عن الفيضان، ((**خالدين فيها أبداً**)): أي ماكثين فيها أبداً، لا يموتون، ولا يمرضون، ولا يبأسون، ولا يألمون، ولا يحزنون، ولا يمسهم فيها نصب، فهم في أكمل النعيم دائماً وأبداً أبد الآبدين ـ اللهم اجعلنا منهم ـ .((**رضي الله عنهم ورضوا عنه**)) وهذا أكمل نعيم أن الله تعالى يرضى عنهم، فيحل عليهم رضوانه فلا يسخط بعده أبداً، بل وينظرون إلى الله تبارك وتعالى بأعينهم كما يرون القمر ليلة البدر لا يشكون في ذلك، ولا يمترون في ذلك، ولا يتضامون في ذلك، أي لا ينضم بعضهم إلى بعض ليريه الآخر، بل كل إنسان يراه في مكانه حسب ما أراد الله عز وجل. ثم قال عز وجل: ((**ذلك لمن خشي ربه**)): أي ذلك الجزاء لمن خشي الله عز وجل، والخشية هي خوف الله عز وجل المقرون بالهيبة والتعظيم ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله كما قال تعالى: ((**إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**)) ، وبهذا تمت هذه السورة العظيمة. وهي قوله تبارك وتعالى: ((**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**)) قوله تبارك وتعالى: ((**وما أمروا إلا ليعبدوا الله ((** أي أن الناس لم يؤمروا بشيء يتعلق بأمور الدنيا أو بشيء يكلفهم بل هو بشيء سهل عليهم وهو عبادة الله عز وجل، ((**ليعبدوا الله مخلصين له الدين**)) فما هي العبادة؟ العبادة تطلق على معنيين: **المعنى الأول**: التعبد، فيقال هذا الرجل تعبد لله عبادة. **والمعنى الثاني**: المتعبد به، فيقال الصلاة عبادة، والزكاة عبادة، والصوم عبادة، وهكذا. فعلى **المعنى الأول** يكون معنى العبادة تذلل العبد لربه عز وجل محبة وتعظيماً بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وعلى **المعنى الثاني** أن العبادة هي المتعبد به يكون معناها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال و الأعمال، فالصلاة عبادة و الطهارة عبادة والزكاة عبادة والصوم عبادة والحج عبادة وبر الوالدين عبادة وصلة الأرحام عبادة، وكل عمل يقرب إلى الله تعالى فإنه عبادة، لكن الله سبحانه وتعالى ذكر أن هذا الأمر مقرون بشيئين الأول: الإخلاص لله تعالى بحيث

يقصد الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة، لا يقصد بها دنيا يصيبها ولا امرأة يتزوجها ولا جاه يشرف به عند الناس ولا غير هذا من الأمور الدنيوية، فمن قصد سوى الله في عبادته فهو مشرك حابط عمله ودليل هذا قول الله تعالى: ((**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**)) ، وفي الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**) ، وفي الحديث النبوي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**) ، هذه أدلة وجوب إخلاص العبادة، وأما الثاني: فهو الإتباع يعني إتباع شريعة الله، ودليله قوله تعالى:)) **حنفاء**)) والحنيف: هو المائل عما سوى شريعة الله، مأخوذ من الحنف: وهو ميل الإصبع، فلا بد من إتباع الشريعة، والدليل لذلك قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)، وقوله: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**) فلا بد في العبادة من الإخلاص والمتابعة. وقوله عز وجل: ((**ويقيموا الصلاة** ((: أي معطوفة على قوله)) **يعبدوا** ((أي ما أمروا إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ونص عليهما لأنهما أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، والصلاة أوكد من الزكاة، ولهذا كان ترك الصلاة كفراً، ولم يكن الكفر بالزكاة كفراً. الناس ((**وذلك دين القيمة**)): ذلك المشار إليه ما ذكر من عبادة الله تعالى على الوجه المذكور بالإخلاص والمتابعة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين القيمة، أي دين الملة القيمة لأنها شريعة الله التي جاء بها رسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذا هو تفسير هذه الآية الكريمة.